دولة المماليك فى حكم التاريخ

للأستاذ ظافر الدجانى

لعل تاريخ الشرق الأدنى فى عهد الحكومة الاسلامية أحفل التواريخ بما يملأ على النفس جوانب الفكر والخيال ، ويوحى إليها أبلغ ضروب الحكمة والموعظة ، لأنه كان مسرحاً لظهور بعض الدويلات الاسلامية الغريبة فى نشوئها ومظاهر حكمها ومبلغ تأثيرها فى مجرى تاريخه العام[1] ولعل أغرب هذه الدويلات ، دولة المماليك فى مصر ، التى اختلست من الدهر ما يزيد على خمسين ومائتى سنة ، كان المملوك فيها مالكاً والمغلوب غالباً ، فكان يتخللها من المؤامرات والدس وأهوال الاستبداد مالا نظير له فى تاريخ المجتمع البشرى . على أنها والحق يقال ليست أول محاولات هذه الطائفة البشرية لاغتصاب الحكم والاستبداد به والانتقام من الجنس الانسانى عامة لما ألحقه بها من ضروب الغطاعة والقساوة ، فقد شهد تاريخ رومة الخالد ، قبل ظهور النصرانية ، كثيراً من هذه المحاولات الجامحة التى باءت جميعها بالفشل والخذلان بعد أن روعت للعالم وضربت له مثلاً صارماً فيما يستطيعه أبناء المماليك ، بل أبناء كل طائفة مظلومة ، فى ميدان التمرد والانتقاض ومقايضة الجور والأذى الصاع منهما بصاعين . ولعل هذه الدولة كانت أكبر انتصار أحرزته هذه الطائفة ، بل لعلها أروع مظهر لجموح أخلاقها ، وتعدد الخوالج التى كانت تتجاذب نفوسها وتتنازعها إلى مسالك الخير والرجولة وجلائل الأعمال ومفاوز الشر والجريمة والآثام !

فى الحق أن هذه الدولة لعبت دوراً خطيراً على مرسح الحياة السياسية العمرانية فى الشرق الأدنى حتى ليعزى إليها أكبر الفضل فى صدّ هجمة التتر المنبعثة من أعماق المشرق ؛ قال ابن خلدون : « حتى إذا استغرقت الدولة فى الحضارة والترف ، ولبست أثواب البلاء والعجز ، ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسى الخلافة وطمسوا رونق البلاد ، وأدالوا بالكفر عن الايمان بما أخذ أهلها عند الاستغراق فى التنعم والتشاغل فى اللذات والاسترسال فى الترف من تكاسل الهمم ، والقعود عن المفاخرة ، والانسلاخ من جلدة البأس وشعار الرجولة ؛ فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الايمان باحياء رمقه وتلافى شمل المسلمين بالديار المصرية بحفظ نظامه وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها العزيزة المتوافرة أمراء حامية وأنصاراً متوافية يجلبون من دار الحرب إلى دار الاسلام فى حقارة الرق »[1] فكانت تنقضى أيام هذه الطائفة فى التنقل من ميدان إلى ميدان ، ومن حصن إلى حصن ، فى مختلف أنحاء سوريا وفلسطين ، وقد اندحر التتر فى أكثر من واقعة واحدة ؛ كواقعة « عين الجالوت » التى كان النصر فيها حليف المسلمين ، فهلك كتبوغا زعيم التتر ، ومزقت جموعه كل ممزق[2] كما هلك خليفته أيضاً وجموعه من بعده ، عند ما حاربهم الملك الظاهر بيبرس ، وردهم على أعقابهم خاسرين متعثرين فى أذيال الهزيمة[3] ، وكانت سوريا فى خلال ذلك

(١) كانت العوامل التى دعت إلى ظهور هذه الدويلات كثيرة منها اضطراب أحوال الشرق السياسية وغلبة الاستبداد على حكامه وملوكه وشيوع بعض الآراء السياسية والدينية وعظم تأثيرها فى نفوس العامة ، وبعض مظاهره الاجتماعية كحياة القصور والحريم ونحو ذلك مما تضيق بذكره هذه الكلمة

ذلك بمعاونة المستنيرين من المسلمين وفضل رئيس الجمعية الحميد ببيروت وعين أعيانها عمر بك الداعوق الذى كانت طريقته وطريقة أعوانه أن يعملوا ولا يقولون ، ويبذلون مالهم ووقتهم ولا يمنون ولا يتبجحون

قرت العيون بهذا العمل الخطير الذى كان سداه الاخلاص ، ولحمته حب الدين والمدنية ، فدفعت جمعية المقاصد الخيرية أبناء أمتها خطوة إلى الأمام ، وغدا الأمل بالمستقبل أعظم من الماضى ، فى محيط تنفق فيه مدارس التبشير للأميركان والفرنسيين وغيرهم عن سعة ؛ وقل فى الشرق الأدنى بلد ظهر فيه نشاط المبشرين ظهوره فى هذه القطعة الصغيرة من الديار الشامية ؛ وقل أن كتب لبلد قاوم المبشرين بمثل سلاحهم كمدينة بيروت . ونعود فنؤكد لو أن كل بلدة حذت حذو النابهين من أبناء بيروت لقضى مع الزمن على الأمية فى المسلمين . وجوهر كل نهضة فى عقول الرجال ، ولا نجاح فى الأعمال لغير المخلصين المثابرين

دمشق — محمد كرد على

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧١

(٢) تاريخ مصر لابن إياس ، مصر ١٣١٢ هـ ج ١ ص ٩٧

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٩

ميداناً لجهاد هؤلاء المماليك العنيف ضد الحملات الصليبية فامتلأت بجيوشهم وزهرة فرسانهم ، ومازالوا يذرعون أرضها صعوداً وهبوطاً ، متكاتفين متكالبين حتى انتزعوا السلطة من أيدي الصليبيين ، واستخلصوا منهم القلاع والحصون ، ففتح الملك الظاهر بيبرس حصن صمد وسيس[1] ، وسيس هذه كانت كعبة المجاهدين من أبناء المماليك لأنها مدينة نصرانية ، فكان أهلها يظاهرون الأرض على جيوش المسلمين

وكان العلويون والحشاشون ، وهم من الباطنية ، أصحاب سلطة ونفوذ ، وكان قد دوخهم هولاكو في حملته المشهورة ، ودمر حصونهم وقلاعهم[2] فاستأصل أبناء المماليك شأفتهم ، وحرروا سوريا من ربقة مظالمهم في عهد الملك الظاهر بيبرس المذكور[3] . وكان الملك الظاهر بيبرس هذا قد استقدم ابن الخليفة الظاهر بأمر الله آخر خلفاء الدولة العباسية في بغداد ، فأكرمه وقلده الخلافة ولقبه « المستنصر بالله » ، فأصبحت القاهرة مركز الخلافة الاسلامية بعد أن كان مركزها بغداد . وبقيت هنالك حتى مقدم العثمانيين[4] . ولكن الواقع أن سلطة هؤلاء الخلفاء كانت مقيدة لا تتعدو أمور الدين والزعامة الدينية . وإنما أكد حاجة المماليك الى هذه الخلافة الوهمية رغبتهم في وسم حكومتهم بطابع ديني شرعي حتى تنهض حجتهم ويستقيم أمرهم بين جماعات المسلمين[5]

وأخيراً لا ينبغي أن ننسى أن هؤلاء المماليك قد خلفوا كثيراً من الآثار والأبنية التي تشهد لهم بالتقدم في فن العمارة وفي الري والعمران ، فقد شيدوا المساجد والمدارس والقصور والمستشفيات ، وعمروا القناطر والترع ، وحفروا الخلجان ، ووسعوا الأوقاف من كل ناحية . وكانوا يتبارون في ذلك حتى عمّر القطر المصري والبلدان المجاورة التي خضعت لحكم المماليك بجليل الآثار . فعمر الملك الظاهر الحرم النبوي ، وقبة الصخرة ، وقناطر شبرامنت بالجيزة ، وقلعة دمشق ، وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة ، وحفر خليج الاسكندرية ، وبنى قرية الظاهرية[1] . وشيد الملك الناصر القصر الكبير الأبلق ، وعمر الديوان الكبير والجامع الكبير الذي بالقلعة ، وعمر المجراة وأجراها من بحر النيل الى القلعة ، وحفر الخليج الناصري ، وعمر قناطر أم دينار[2]

على أنه مهما قيل في حسنات هؤلاء المماليك فتمت ما يقال في سيئاتهم وفيما خلفوه من آثار البطش والجور والارهاق ، لخبث سيرتهم وعظيم جورهم ، وغلبة القسوة وشهوة الاستبداد على طبائعهم ، أولئك الذين كانوا في الأمس عبيداً أرقاء ! فكان السلطان منهم مستبداً في أمره لا وازع يكفه عن عمل الموبقات ؛ وكانوا فوق ذلك لا يعرفون « مبدأ الوراثة » في الحكم ، فكان القوي منهم ينتهز الفرص للتفرد بالحكم والاستبداد بالضعيف ، فكان ذلك الوقت وقت تشاغل وفرص ، بل وقت مؤامرات تحاك في الخفاء ، فلا يسلم منها الشعب ، ويصيبه من جرائها كثير من الجور والارهاق . وكانت الضرائب غير مقيدة بقانون أو وازع ديني أو إنساني ، وإنما كانت تتفاوت في الزيادة والنقصان حسب الظروف والأحوال ومشيئة السلطان

ولم تكن مصر مع ما ذكرنا بأسوأ حالاً من سورية وفلسطين ، ولاسيما وأن الأخيرتين كانتا ميداناً للحروب والمناحرات . وهكذا ضج الناس وعم الفقر ، وانتشر الجهل والبلاء . وكان المجد العربي والعزة العربية والخلق العربي قد امحت جميعها من أذهان العامة ، فأصبح الناس لا يبالون بمن يولونه قيادهم ، ويسلمون له زمام أمورهم ، وإنما يطلبون العدل والانصاف !

وفي وسعنا المضي في هذا السبيل القاتم ، ولكننا نخشى ألاّ يكون في ذلك فائدة بعد أن دللنا بالقليل على الكثير ، وهذه كتب التاريخ حافلة بمظاهر الجور بل بمشاهد الفقر والذل التي سادت الشرق العربي في ظل حكم المماليك

يافه — ظافر القاسمي

أ . ع

(١) المصدر نفسه ١٠٤

(٢) تاريخ مصر الحديث ، للمرحوم جورجي زيدان ، مصر ١٨٨٩ م ص ١٨ (٣) دائرة المعارف الاسلامية « مادة المماليك »

(٤) راجع تاريخ ابن اياس المخدم ج ٣ ص ٩٧ . وتاريخ جودت ترجمة دنا (بيروت ١٣٠٨ هـ) مجلد (١) الخ . . .

(٥) ابن اياس ص ١٠٠ . قال Main في كتابه المماليك (لندن ١٨٩٦ م) ص ٢١٤ ما ترجمته : « كانت خلافة المماليك مظهراً لا أثر للحياة فيه ، ولكن خلافة العثمانيين كانت مجرد حلم ! »

(١) ابن اياس ص ١١١ (٢) المصدر نفسه ١٧٥